بلاد الشام

كما يصفها قطب الدين المكي سنة (٩٦٥ هـ)

الأستاذ العلامة حمد الجاسر

(١)

إيجاد مختلف الصلات بين مثقفي الأقطار العربية من أَهَمِّ مايجب أن يُعْنَى به المثقفون، لتقوية أواصر التقارب والتعارف والتآخي بينهم، إذ الثقافة هي أقوى رابطة روحية، تؤلف بين قلوب أبناء الأمة، وتوحِّدُ بين من تجمعهم روابط من القُرْبى والدين، واللغة والأهداف والغايات .

وحَسَنٌ أن يُعْنَى كل قطر بإبراز مايتميز به مثقفوه في الجوانب العلمية التي برَّزوا فيها، وخاصة مايتعلق بذالك القطر، وأحسن من هذا أن تكون النظرة أشمل وأعمَّ، وإن كانت الثقافة في مختلف الأقطار العربية تستمدُّ من روافد ذات منبع أصيل واحد .

وكما سارَعْتُ قبل أربعين عاما حين اطَّلعت على مخطوطة لديوان شاعر من بلاد الشام هو : محمد بن نور الدين بن محمد المعروف بـ (الدَّرَّا) (١٠٢٨ - ١٠٦٥ هـ) جمعه أحد أدباء الحجاز فاستنسخته وبعثتُ بتلك النسخة بعد تصحيحها لمجمعنا الكريم (المجمع العلمي العربي) وها أنا أبعث

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

وصفاً شيّقاً لبلاد الشام، ورد في رحلة مؤرخ مكة وعالمها، محمد بن أحمد النهروالِي ثم المكي (٩١٧ – ٩٩٠ هـ) كتبه حين مَرَّ بهذه البلاد متّجها إلى (اصطنبول) فيما بين شهرَي المحرم وجُمَادَى الأولى من عام ٩٦٥ هـ . وهذه الرحلة لم تُنْشَر بَعْدُ .

وكنت أوَدُّ أنني أضفت إلى ذالك الوصفِ إيضاحَ بعض الجوانب التي بحاجة إلى إيضاح ولكنني فَضَّلْتُ أن يقوم بهذا من هو أعلم مني بها من أهل هذه البلاد الكريمة، فهم كما قيل :

(أهل مكة أدْرَى بشعابها) .

وإذَنْ فلا غضاضة إذ اكتفيت بتقديم النصّ خاليا من التعليق عليه (فما على المُطْرِبِ أن يُعْرِبَ).

مؤلف الرحلة :

هو الشيخ محمد بن الشخ أحمد النهروالي، نسبة إلى مدينة (نَهْرَوالة) الواقعة في إقليم (كُجْرَات) بأرض (الدَّكَن) في غرب (الهند) . ولد سنة ٩١٧ هـ في مدينة (لاَهُور)، ثم هاجر إلى (مكة) وبها استقرَّ، فتلقى العلم عن مشاهير علمائها وغيرهم، ورحل إلى مصر سنة ٩٤٣ هـ فتلقى عن كبار العلماء في ذالك القطر، كما مَرَّ ببلاد الشام، وكان ممن أخذ عنه من علمائها شيخ الإسلام الغَزِّي، وعلاء الدين ابن عماد الدين، وكمال الدين الحمزاوي أثناء قدومهم مكة للحج، وكان يُجِيد مع اللغة العربية اللغتين الفارسية والتركية، فكان متنوعَ الثقافة إبَّان اتجاهه لطلب العلم، إلاَّ أنه برَّزَ في العلوم الدينية بدرجة أهَّلَتْهُ لتولي منصب الإفتاء في مكة والقضاء، وأن يؤلف مؤلفات في ذالك، وأن ينقل بعض المؤلفات التركية والفارسية إلى اللغة العربية، وله نظم باللغات الثلاث، وله رحلات متعددة إلى مصر والشام والبلاد التركية، ولقي حظوة لدى ولاة الأتراك ومشاهيرهم، بحيث (أصبحَ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

عظيم الجاه عندهم، لا يحج أحد من كبرائهم إلاَّ وهو الذي يَطُوف به، ولا يرتضون غيره، وكانوا يعطونه العطاء الواسع) – «البدر الطالع» ٢/ ٥٧ – ولهذا أسْند إليه أولئك الولاة كثيراً من المناصب في التدريس والإفتاء وغيرهما، وقرروا له مرتباً شهرياً يقارب لما قرروه لشيخ الحرم، الذي كانت مرتبته لديهم تلي مرتبة شريف مكة .

لن أُطيل الحديث عنه، فقد أوفيته ترجمة في مقدمة «البرق اليماني في الفتح العثماني» الذي قمت بتحقيقه ونشره سنة ١٣٨٧ هـ (١٩٦٧ م) وذكرت فيه مؤلفاته التي من أشهرها ، تاريخ مكة، المُسَمَّى «الإعلام بأعلام بيت الله الحرام» وأكتفي بالحديث عن رحلته التي ساقها في تذكرته، وهي كما وصفها السيد محمد بن عبد الله المعروف بكبريت[1] (تذكرة جامعة) وهي تحوي رحلات القطبي المتعددة إلى المدينة[2] ورحلته إلى اصطنبول التي دعاها «الفوائد السنية، في الرحلة المدنية والرومية» وتتضمن هذه التذكرة – عدا أخبار الرحلات – فوائد تاريخية عن حوادث وقَعَتْ في عهده وقصائدَ شعرية عربية وفارسية له ولغيره .

وتقع الرحلة إلى اصطنبول «الفوائد السنية في الرحلة المدنية والرومية» في ٨٩ صفحة من صفحات «التذكرة» الواقعة في (٢٨٣) من الصفحات المستطيلة ، في الصفحة مابين ٣٧ و ٣٤ سطراً بالخط الفارسي الدقيق، خط المؤلف نفسه، يقع وصف الزيارات للمدينة في إحدى وعشرين صفحة .

وقد دُوِّنَتْ هذه التذكرة في دفتر كبير مستطيل الورق، ذكر المؤلف

(١) : ذكر هذا في «رحلة الشتاء رالصيف» – ص ١٥٢ – الطبعة الأولى، والسيد كبريت من أشهر أدباء المدينة، ولد سنة ١٠١٢ هـ وتوفي سنة ١٠٧٠ هـ في المدينة المنورة، وله رحلة إلى بلاد الروم (تركيا)، اسمها «رحلة الشتاء والصيف» مطبوعة، ومؤلفات كثيرة منها «الجواهر الثمينة في محاسن المدينة» (الأعلام للزركلي – وفيه مصادر ترجمته) .

(٢) : نشرت في مجلة «العرب» – س ١٦ ص ٥٠٢ – وما بعدها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أنه فُقِد منه أثناء الرحلة، قبل أن يصل إلى (اصطنبول) ثم وُجد، وأُرسل إليه من قبل أحد أبناء السلطان سليمان القانوني، في خبر طريف، ساقه أثناء كلامه على سفره من (قره أيوك) إلى (اصطنبول) في يوم الخميس ثاني جمادى الآخرة قائلاً : (وقعت (الجنتة)[1] المعلقة في السرج، وفيها الدواة والقلم، وهذا الدفتر، ولا ندري كيف وقعت، وتألَّمتُ لذالك، لأن الدفتر كان فيه ذكر المراحل والمنازل، وما لاقيته وما صرفته، فأرسلت مكتوباً إلى السلطان بايزيد[2] مع أحد (الاسباهية)[3] الذين أرسلهم معنا، وأمرت برجوعه إلى السلطان بايزيد، والفحص عن (الجَنْتَة) فعاد، فلما وصل إليه المكتوب جمع كبار أهل القرى التي هناك، وأمرهم بالفحص عن (الجنتة) كما هي من كُلِّ بُدٍّ، فتوجهوا يسألون عنها، فوجدوها عند امرأة، فأتوا بها إليه فأحسن إليها، ورأى الدفتر وبعض مسودات، فطالع فيها وأعاد إليَّ (الجنتة) ووضع الكلَّ في كيس، ومهر عليه، وسلمه إلى (الإسباهي) فعاد إلينا وأدركنا في (اصطنبول) .

الغاية من رحلته إلى اصطنبول :

لقد أوضح الغاية من رحلته إلى (اصطنبول) بقوله : (بأنه سافر مبعوثا من قبل الشريف حسن بن أبي نُميٍّ[4] إلى السلطان سليمان[5]، والغرض

---

(١) : الجنتة : يقصد الشنطة، والكلمتان، أعجميتان محرفتان وعربيتهما (الحقيبة) .

(٢) : هو ابن السلطان سليمان القانوني ولم يتولَّ السلطنة .

(٣) : (الاسباهية) : وقد تنطق (الاصباهية) الفرسان واحدهم (اسباهي) أي فارس .

(٤) هو : حسن بن أبي نمي محمد بن بركات بن الحسين الهاشمي ولد سنة ٩٣٢ هـ وتوفي سنة ١٠١٠ هـ، وقد شارك أباه في إمارتها ثم انفرد بعد وفاته سنة ٩٩٢، ويظهر أنه في آخر حياة أبيه كان هو المتصرف بشؤون ولاية مكة، ولهذا بعث القطبي لمهمته .

(٥) : السلطان سليمان القانوني بن السلطان سليم بن بايزيد خان تولى السلطنة سنة ٩٢٦هـ - وتوفي سنة ٩٧٤ هـ على ماذكر السيد محمد كبريت المدني في رحلته .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

منها السعي لإخراج والي المدينة المسمى (بيري) والمعيّن من قبل السلطنة العثمانية) إلاَّ أنه فيما يبدو لم يتمّ له ما أراد، إذ ذكر أنه في ١٨ رجب سنة ٩٦٥ هـ ركب مع الوزير الأعظم إلى بيته، وذكر له أن (الخنكار) يقصد السلطان تأبّى من إخراج (البِيري) وعسكره من المدينة، وأمر بالتفتيش عليه، فإذا ظهرت منه جنحة رُفع عن المدينة قال: (فضاقت الدنيا عليّ بهذا الجواب، وقلت له: كيف التفتيش على ظالم غاشم، يفعل بيده مايريد، ولا يرده عقل ولا دين؟)، ثم عاد من رحلته واصفاً ماقاساه من جَرَّاء عدم نجاح سفارته هذه ماراً بمصر، ووصل مكة في ثالث ذي الحجة سنة ٩٦٥ هـ، فكأنه أمضى في هذه الرحلة مايقرب من أحد عشر شهراً، من خامس المحرم إلى ثالث ذي الحجة من السنة المذكورة. وللمزيد من معرفة أحواله يحسن الرجوع إلى ماكتبته عنه في مقدمة كتاب «البرق اليماني في الفتح العثماني»

أما وفاته: فقد ذكر الغَزّي في «الكواكب السائرة[(١)]»: أنه توفي سنة إحدى وتسعين وتسع مئة وأرى الصواب ماذكره مؤرخ مكة عبد الملك العِصَامي حيث قال: بأنه توفي يوم السبت السادس والعشرين من شهر ربيع الثاني سنة تسع وتسعين ومئة، وقت أذان الفجر الثاني، ويضيف العصامي إلى هذا قوله: (فأرخ بعض الفضلاء ذالك بقوله: (قد مات قطب الدين أجَلُّ علماء مكة) قال العصامي: قد حسبت هذا ووجدته يزيد على سنة الوفاة واحداً، ومثل ذالك يغتفر عند المؤرخين على خلف[(٢)]).

وعلى ماذكر العصامي سار مؤرخو مكة وغيرهم كصاحب «شذرات الذهب» في تاريخ وفاة القطبي.

---

(١): – ج ٣ ص ٤٧ –.

(٢): «سمط النجوم العوالي» – ج ٤ ص ٣٨٤ –.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وصف الطريق إلى الشام :

سار من مكة مع الحج الشامي، وأميره يونس (سنجق حمص) إلى المدينة، فكان المرور بالوادي (مَرِّ الظهران) ثم (بِخُلَيْصٍ) ثم بـ (خَبْت كُلَيَّة) ثم بـ (رابغ) ثم بـ (خَبْت الْبَزْوَة) ثم بـ (بَدْرٍ) فـ (الخَيْف) ومنه إلى (شِعْب علي) فـ (المدينة) ، وكان أميرها السيد عِجْل بن عَرار، و (أغا النوبتجية دَلوبيري[1]) وقال : (وتوجُّهنا إلى باب السلطان إنما هو لإخراج (دلوبيري) من المدينة ، لشدته وفظاظته وبغضه لآل النبي ﷺ ، وسوء معاملته معهم) وبعد الإقامة في المدينة ثلاثة أيام كان الاتجاه إلى (الشام) وكان دَقيقاً في حساب مايصرف من النقود أثناء سفره ، فقد ذكر أنه في يوم بروزه من المدينة حسب مفردات المصروف ومؤونة السفر، وكراء الجبال إلى الشام وغير ذالك، فبلغ من الذهب الجديد ثلاث مئة دينار ذهباً وإحدى وأربعين ذهباً وخمسة وعشرين مُحَلّقاً، واستمَرَّ على هذا .

وكان معه أخوه محب الدين حبيب الله[2]، وثمانية من المرافقين من الموالي، ورواحله سبعة جمال وبغلتان .

ثم سمَّى مراحل الطريق يوماً بعد يوم، من اليوم السادس عشر من المحرم حين خرج من المدينة، فذكر المراحل مرحلة مرحلة، المرحلة الأولى : (وادي القرى) كذا سماه خطأ[3]، وصوابه (وادي ذي خُشُبٍ) فـ (وادي القرى) هو (وادي العُلا) وسيأتي ذكره فيما بعد، ثم ذكر (وادي الفحلتين)

---

(١) : أي رئيس الجند الذين يتناوبون الحراسة في المدينة .

(٢) : من العلماء، تولى القضاء في اليمن، انظر ماجاء عنه في كتاب «الدرر الفرائد المنظمة» .

(٣) : وقد سبقه إلى هذا بعض الرحالين قبله، ووادي (ذي خشب) هو مجتمع سيول أودية المدينة التي تمتد حتى تكون الوادي العظيم المعروف قديماً باسم (إضم) وحديثاً باسم (وادي الحمض) .

شبكة الألوكة www.alukah.net هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة www.alukah.net

ولم يفته أن يسجل حادثة سيئة لأمير الحاج الأمير يونس وهي : (أنه مَرَّ في الطريق بإبل ترعى لـ (عَنَزَة) فاستاقها، واستاق معها بعض الحمير، وهرب أهلها، وكانت الإبل نحو الستين، والحمير نحو العشرة، فباعها في العربان الذين معه، وأمست (عَنَزَةُ) في تلك الليلة تأخذ من تطرَّف من الحجاج، وكانت ليلة مخوفة) انتهى .

وهذا يوضح بعض أسباب ما كان يلاقيه الحجاج من أبناء البادية، في السنين الخوالي، حيث زخرت مؤلفات بعض المتأخرين بالنيل من أبناء البادية، دون التعمق في ذكر الأسباب التي تدفعهم إلى ارتكاب بعض الأخطاء بالنسبة للحجاج، بسبب معاملة أمراء الحج من الأتراك لأهل البادية أسوأ معاملة، ودون النظر إلى مايقاسيه أولئك من شظف العيش، وشدة الفقر والفاقة، مما يضطرهم إلى ممارسة بعض تلك الأمور المخلَّة بالأمن، الملحقة أبلغ الضرر بالحجاج، من قتل وسلب ونهب وغير ذالك .

وبعد الفحلتين ذكر (هَدِيَّة[1]) ثم (شِعْبَ النعَام) ثم (الطوامير) ثم الوصول إلى (العُلاَ) بعد ستة أيام من الخروج من المدينة، ووصفها بأنها (قرية بين جبال شامخة، فيها عين ماء، ونخيل بكثرة، وكانت معفاة في أيام الجراكسة، وفي صدر من دولة بني عثمان - يقصد من الضرائب - فغزاهم طائفة من العرب، فرفعوا أمرهم إلى عيسى باشا نائب الشام، فأمر أن يُبنى حصنٌ ويجعل فيه (نوبتجية) وأن تُجْبى القرية، ويؤخذ على كل نخلة (عثمانية)، ويصرف ذالك على العسكر، وتحفظ عن العربان، وصارت تلك الجباية إلى الترقّي، إلى أن صار يؤخذ منهم ألف عثمانياً، فشكوا فلم تُفِدْهُمُ الشكوى والمظلمة باقية إلى اليوم) !! .

وذكر الإقامة في (العُلاَ) يومين، والرحيل منها في الرابع والعشرين من

(١) : حددت هذا الموضع وما بعده في قسم شمال المملكة من «المعجم الجغرافي».

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
الألوكة
www.alukah.net

الشهر، والمرورَ بـ (قُرَى صالح عليه السلام) ثم وصف البيوت المنحوتة في الجبال التي في (الحِجْر) .

وهنا يحسن التنبيه إلى خَطَأٍ وقع فيه هو وكثير من الرحالين، وهو تسمية موضع (الحِجْرِ) باسم (قُرَى صالح) أو (مَدَاين صالح) ووجه الخطأ أن صالحا النبي عليه السلام عندما لم يستجب قومه لدعوته اعتزلهم، وتلك سنة الأنبياء مع قومهم، ولم يقم في بلادهم ، فنسبة البلاد إليه خطأ لا من كونها وصفت بأنها (قرى) أو (مدائن) وهي واحدة فحسب، ولكن لأن صالحاً لم يَبْقَ فيها، وأنها ديار ثمود كما سماها الرسول ﷺ، وهي (الحِجْر) المذكورة في القرآن الكريم .

وسبب خطأ التسمية أنه يوجد بلدة تقع بعد (العُلاَ) أي غربها كانت تدعى (مدينة صالح)، وصالح هذا ليس صالحاً النبي عليه السلام، بل كان أميرا لهذه البلدة من بني العباس، فكانت تعرف هذه المنزلة باسم (مدينة صالح) فوقع الخلط بين المنزلتين، منزلتي (الحِجْر) الواقعة شرق (العلا) شمالها، وتلك مقر ثمود قوم صالح، ومنزلة (مدينة صالح) الواقعة غرب العلا التي تنسب إلى أحد أمرائها، وقد خَربت هذه القرية قبل القرن الخامس، ولم يبق سوى آثارها، وتسمى الآن (المابيَّات[1]). وقد أوضح جانبا من هذا ابن ناصر الدين الدمشقي في كتابه «توضيح المشتبه» في رسم (مدينة صالح) ونقله عنه ابن طولون الدمشقي في كتابه «البرق السامي في ذكر

---

(١) : اسم حديث لعل أصله من (الوباء) وانها (الموبئيّات) أي البلاد التي تنتشر فيها (الحمى) لكثرة مياهها، وكان موضع هذه البلدة مجتمع أودية، وفيه آثار عيون مما يدل على انتشار الوباء (الحمى) فيها، وقد ظنها بعضهم مخطئا هي (قرح) مقر السوق القديم في وادي القرى، فألف كتاباً نال عليه اجازة (الدكتوراه) ورأيه خاطئ ، فـ (قرح) يقع شرق بلدة العُلاَ متصلاً بها في موضع يعرف الآن باسم (الخربية)، أصبح داخل عمران مدينة (العلا) كما أوضحت هذا في مكان آخر.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

منازل الحج الشامي[١]».

استمر سير الرحلة بعد الإقامة في (العُلاَ) يومين، والمرور بـ (الْحِجْرِ) وبعد (الحِجْرِ) الوصول إلى موضع يدعى (المَبْرَك) وآخر باسم (مفارش الرزّ) ثم (بِرْكَة المعظَّمِ) في يوم الجمعة، وهي بركة واسعة مبنية بالحجر والجصّ والنورة بناءً محكماً، بحيث تدخلها السيول من الجهات الأربع أيام الأمطار، ويستمر فيها الماء مدة، بناها الملك المعظم صاحب (حلب) للحجاج، وأضيف: ولا تزال هذه البركة عامرة، وقد شاهدتها :

وبعد المرور بـ (الأُخَيْضر) ثم (البَرْك) – بفتح الباء – كان الوصول إلى (تَبُوك) في اليوم التاسع والعشرين من شهر المحرم، وكانت الملاقاة الواردة من الشام لإعانة الحجاج قد وصلت إلى (تبوك) والملاقاة أناس يجلبون مختلف البضائع، مما يحتاج إليه الحجاج، ويسميهم المؤلف (المتسبِّبين[٢]) .

وفي ثالث صفر كان المبيت في (قاع البُسَيْطَة) ثم المرور بـ (ذات حَاجٍ) وسماها (ذات حَجْرٍ) خطأ، وهي بتخفيف الجيم، والحَاجُ : نوع من النبات[٣]، ثم في (الطُّبَيْلِيَّات) موضع ذو نخل وماء قليل، وبعد ذالك ذكر المرور بموضع يدعى (عَبَّادان) وقال : (وهو صاحب المثل (ليس وراء عَبَّادَان قرية) فيما أظُن) ولكن هذا الظن لم يصادف الحقيقة، فالمثل الوارد ينطبق على (عَبَّادَان) البلدة الواقعة في الساحل الشرقي من الخليج العربي، كما ذكر ذالك صاحب «تاج العروس[٤]» وغيره .

---

(١) : نشرت كاملة في مجلة «العرب» – س ١٠ ص ٨٦٩ – .

(٢) : ولا تزال هذه الكلمة مستعملة في نجد تطلق على صغار التجار الذين يتاجرون بمختلف البضائع يسمى واحدهم (متسببا) .

(٣) : انظر عن ذات الحاج وماقبلها من المواضع قسم شمال المملكة من «المعجم الجغرافي»

(٤) : رسم (عبد) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وفي يوم الأحد سادس شهر صفر كان الوصول إلى (مَعَان) وصف الموضع بقوله : (وهو منهل فيه الماء ليس بالجيِّد، ووجدنا به ملاقاةً أُخرى معهم الفواكه والعَلِيق، وكان شديد البرد) ثم سمَّى من المواضع التي مَرَّ بها بعد (مَعَانَ) ظَهْر (عُنَيْزة) و (الحَسا) و (خان القطراني) و (البلاطة) وهي مواضع في (الأُردنِّ) معروفة .

ثم (الزَّرقاء) وصلها في ضحوة يوم الجمعة الحادي عشر من صفر، ووصف ماء (الزرقاء) بأنه طيِّب، وبعد (الزرقاء) الوصول إلى (المَفْرَق) فـ (الكثيب) .

وفي ضحوة يوم الاثنين إلى (مقام السيد ذي النُّون) قال : (فوجدنا شكله حصار محوط، ومطبخ على اليسار، يطبخ فيه الشُّوْربة يسلق لجميع الحجاج، فأكلنا منه، ونحن على ظهور الجمال، ووصلنا إلى موضع يقال له (الكِسْوة) يمكس فيه الحجاج فيؤخذ على كل حمل مُحَلَّقٌ فِضَّةٍ، وعلى كل عبدٍ عشرين (؟) محلَّقاً، واستمرينا كذالك إلى أن دخلنا الشام) يقصد مدينة (دمشق) .

فكأنه مكث في الطريق بين المدينة وبين الشام من سابع عشر المحرم إلى الرابع عشر من شهر صفر (٢٧) يوما .

نظرته إلى هذه البلاد :

لم يأت قطبُ الدينِ المكيُّ إلى بلاد (الشام) قاصِداً زيارتها، مُريداً أن يتصل بعلمائها وأدبائها، وأن يعرف مايتطلع السائح الأجنبيُّ إلى معرفته في بلادٍ قصدها، وإنما أتى إليها ماراًّ بها دون قصد، فهو في سفارة من حاكم مكة إلى السلطان العثماني، وإذَنْ فهو مَعْنِيٌّ بشؤون سفارته، مشغول بكل مايتعلق بها، متجه تفكيره إلى ماذا ستكون نتيجة سفارته هذه، يضاف إلى هذا أنه أراد أن تكون صلته برجال الدولة التي هو متجه إلى سلطانها قويَّةً،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لعله يزداد بهذه القوة صلة تهيّئ له النجاح في مهمته، على هذا فلا عتب على علماء هذه البلاد وأدبائها أن يَدَعُوهْ وشَأْنَهُ، فلم يشغلوه بأمر خارج عما اتَّجه له ، فبدا منهم شيء من الانقباض وعدم الاتصال به .

ومن هنا لم نره أشار إلى مايتصف به أولئك العلماء والأدباء من ثقافة وعلم ومعرفة وأدب، سوى إشارات موجزة لاينبغي أن تتخذ دليلاً على مايتصف به أدباء تلك البلاد وعلماؤها من علم وفضل.

وليس من المستبعد أن تكون النظرة العامة في هذه البلاد إلى الدولة العثمانية وتصرفاتها في إدارة الحكم فيها في ذالك العهد ليست نظرة ارتياح، ومن هنا كانت صلة القطبي بعلمائها فاترة .

لقد وصل دمشق في اليوم الخامس عشر من شهر صفر، وأقام في هذه المدينة سبعة وعشرين يوماً أي إلى اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول، واجتمع بعلمائها، وبعدد من مشاهيرها، ولكنه عُنِي أوَّلَ ماعُنِي بالمفتي التركي، ونظم قصيدة في مدحه، وتعرض لذكر العلماء بما سيراه القارئ .

ثم دخل مدينة (حمص) في اليوم السادس عشر من الشهر المذكور، وبقي فيها يومين اجتمع فيها بعلمائها وأعيانها .

وفي مدينة (حماة) أقام ثلاثة أيام لاقى علماءها وأدباءها، وغادرها إلى (حلب) فاجتمع بعلمائها وأدبائها، ولقي فيها إكراماً وضيافة وحسنَ استقبال، ثم غادرها في يوم الأحد ثاني جمادى الأولى، إلى البلاد التركية .

وهو في كل مدينة من تلك المدن التي يَمُرُّ بها يُعْنَى عناية كبيرة بالاتصال بالعلماء والشعراء وبالتباحث معهم، وبمساجلة من يساجله منهم .

ومع أن الغَزِّيَّ في «الكواكب السائرة» أشار إلى أن والده عالم الشام في ذالك العهد قد أضافه وأكرمه، حين مَرَّ في تلك الرحلة، ونزل في (حارة القرماني) تحت (قلعة دمشق)، وأن شيخ الإسلام المرعشي أضافه وأكرمه لما

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اجتمع به في مدينة حلب، فإن انطباعه عن بلاد الشام على وجه الإجمال يدل على أن نظرته إلى أهلها نظرة تخالف الواقع .

إنه يقول : ورأيت أهل الشام يغلب عليهم الجفاء، والجلافة، والانقباض من الغرباء فلم آلَفْ أحداً منهم .

وقد وصف عالما من علماء الشام هو الشيخ شمس الدين محمد بن هلال الحمصي بقوله : له شعر لابأس به، من أواسط الشعر، فامتدحني بقصيدة، فأرسلت إليه بكسوة ومعها هذه الأبيات، قصدتُ بها التعرضَ بأعيان الشام، تلك الأبيات قوله في ممدوحه :

وعَجِبْتُ إِذْ خالَفْتَ أهل الشام في حُبِّ الغريبِ وَحِرْتُ في إمكانهِ
وأظنُّ بالتحقيق أنك هاهُنَا مِثْلِي غريبُ الدَّارِ عن أوطانهِ

وهو لايكتفي – في وصفه وتسجيله – بما يتعلق بالعلم والشعر، بل كثيراً ماأشار إلى مالبلدة التي يمر بها من مظاهر، ومافيها من آثار، ومالها من مميزات، فيقول – مثلا – في وصف مدينة (حمص) : وهي بلدة كبيرة جداً، إلاَّ أن غالبها خراب، ولها حِصار عظيم، وحصن بها، ويجري بها النهر العاصي، وكانتْ من محاسن بلاد الشام، إلاَّ أنها دثَرَت الآن، والموجود الآن في (دفتر العوارض) أربعة آلاف وأربع مئة بيت، وذالك خارج عن ألف بيت، تقريباً ليسوا في الدفتر، لأنهم لايعطون شيئاً من العوارض .

وفي نسائهم جمال وحسن، ليس في غيرهن من أهل ذالك القطر .

لاداعي للاسترسال في تلخيص كلام هذا الرحالة عما شاهدة في هذه البلاد الكريمة، ولعل من الأنسب ايراده بنصه كاملاً .

وقبل ذالك تحسن الإشارة إلى مايعترض القارئ أثناء كلام الشيخ القطبي، من كلمات عامية أو لحن أو إدخال ألفاظ تركية، ولعل مرد هذا لأمور :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أولها : أن الشيخ سجل كلامه بخط يده، بهذه النسخة التي قد تكون الأولى، وأنه لم يُعِدِ النظر فيها حيث وقع اللحن في بعض الكلمات، وبعض بياض تركه ليملأ فراغه فلم يتمَّ له ذالك في هذه النسخة التي هي (المسودة) وأنه في غيرها أصلح بعض الأخطاء، ولعل مما يدل على هذا أن الجزيري في كتاب «الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة» نقل عن رحلة القطبي نسب بعض سلاطين آل عثمان، وهذا مما لايوجد في هذه النسخة .

ثانيها : أما الكلمات التركية فالشيخ عاش في أول عهد هذه الدولة إبَّان شيوع كلمات من اللغة التركية، أصبحت منتشرة بحيث كانت ذات وَضْعٍ مستقرٍّ مثل كلمة (نوبتجية) ويُقْصد بها الجند المتناوبون في حراسة قلعة أو أي مكان آخر، وكذا كلمة (حصار) ولعل المقصود بها الجند المرابطون في المدينة، و (سنجق) ويقصد به (اللواء) من الجند، والناحية التي يحكمها شخص كـ (سنجق حمص) وكلمات أخرى تركية كثيرة .

إلى غير ذالك مما سيمر بالقارئ مما اقتضت الأمانة العلمية نقله بنصه، وفيه مالا يخفى صوابه.

ويلاحظ أن مصور مااتخذته أصْلاً أضفى أطرافَ بعض الصفحات على أطراف الصفحات الأخرى فأخفى كلمات لم تتضح فتركْتُ لها بياضاً، وقد يستطيع الباحث المدقق الاهتداء إلى تلك الكلمات بالرجوع إلى الأصل الذي لم يتيسر لي الاطلاع عليه .

أما أصل المخطوطة ففي احدى مكتبات (اصطنبول) واسم تلك المكتبة كما في ختمها ماهذا نصه : (من الكتب الموضوعة عند الفقير إليه عز شأنه صدقي زاده أحمد رشيد المفتش بأمور الأوقاف غفر لهما سنة ١٢٣١ هـ) ثم كتابة رقم (٢٤٤٠) خارج الختم، ولعل كتب هذه المكتبة مما نقل إلى

شبكة الألوكة
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

(المكتبة السليمانية) التي هي دار الكتب العامة في (اصطنبول) كما نقلت كتب المكتبات الأخرى الصغيرة إليها .

والرحلة كما سبقت الإشارة إلى هذا تقع في دفتر يحوي غيرها وهي آخر مافيه .

وهاهو انموذج للصفحتين الأولى والأخيرة من «تذكرة القطبي» وآخرها الرحلة، ومنها يتضح نوع خط الشيخ القطبي وهو بالقلم الفارسي الحسن .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

بسم الله الرحمن الرحيم اللهم لا سهل الا ما جعلته
سهلا وانت اذا شئت جعلت الحزن سهلا
ما وقع من اقتضاء الله تعالى لي اني توجهت
ليلة الثلاثا تاسع عشر ربيع الاول سنة تسع
[illegible]

[الصفحة الأولى من المخطوطة]

شبكة الألوكة
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
www.alukah.net

١٩٩

٢٨٢

وافى الركب ليلة الاربعا ويوم الاربعا
ورأينا هلال ذي الحجة ليلة الاربعا ورحلنا
بعد المغرب ليلة الخميس ثاني الحجة وسبق هنا
كثيرون الى مكة خصوصا اهل [illegible]
المنزل الثاني والخمسون عسفان وهو بير يقال
يقال ان النبي صلى الله عليه وسلم تفل فيها وروى
الحافظ مغلطاي ان النبي صلى الله عليه وسلم ولد
بعسفان نزلنا به صبحا وتغدينا ورحلنا
المنزل الثالث والخمسون وادي مر الظهران
وصلناه قرب المغرب فنزل الحجاج من استمر الى
مكة ومنهم من اقام وعشى ورحل واصبح في مكة
ودخل امير الحاج وطاف وسعى وعاد الى الزاهر
وبات به واصبح في وطاق منصوب له ولاقاه
صاحب مكة سيدنا ومولانا المقام الشريف العالي
السيد حسن بن ابي نمي نصره الله تعالى ولبس الخلعة
وسار معه الى ان انزله في مدرسة السلطان
الاشرف قايتباي رحمه الله تعالى وكان ذلك
يوم الجمعة المباركة ثالث ذي الحجة سنة
خمس وستين وتسعماية

[الصفحة الأخيرة من المخطوطة]

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net